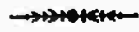


كان لمصر أسطول

فرل يعبر التاريخ نفسه ؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان



كانت مصر بين الدول التي دعمتها الحكومة البريطانية إلى الاشتراك في حفلة العرض البحري الكبرى التي أقيمت لمناسبة تتويج جلالة الملك جورج السادس ، ولكن مصر اعتذرت عن إجابة هذه الدعوة لأنها لا تملك من الوحدات البحرية الثلاثة ما يصلح لاشتراكها في مثل هذا الحفل الدولي العظيم . وبالأمر احتفلت مصر بتتويج جلالة ملكها الفاروق احتفالاً رائعاً يذكرنا بجلاله وروعه بمجد عصورنا الذهبية وعظمتها ، وروعة أيامها ومناسباتها المشهودة ؛ واشترك الجيش المصري بالأسلحة بوحدهاته البرية والجوية في هذه المناسبة السعيدة اشتراكاً يذكرنا بماضيه العسكري الباهر ، ويبحث إلى الأمل في أن يفدو سراعاً كما كان في الماضي درع البلاد وحصنها الحصين .

ولكننا لم نسمع للأسف صوت الأسطول المصري ، ولم نشهد أثره في تلك المناسبات العظيمة لأن مصر لا أسطول لها .

هذه الحقيقة المؤلمة يجب أن تلفت أنظار مصر المستقلة إلى مركزها الدقيق بين دول البحر الأبيض المتوسط ، وإلى ما يمكن أن تواجهه في المستقبل من الأخطار من هذه الناحية خصوصاً في هذا العصر الفياض بالتطورات والاحتمالات السريعة ، وفي هذه المياه التي تنذر من آن لآخر أن تضطرم بكدر الخصومات والمنافسات التي تتفاقم عواملها يوماً بعد يوم .

فمصر بلد بحري بلا ريب تمتد شواطئه إلى مسافات بعيدة على طول البحرين التاريخيين العظيمين : بحر الروم أو البحر الأبيض المتوسط ، وبحر القلزم أو البحر الأحمر ؛ وقد لعب هذان البحرين العظيمان منذ فجر التاريخ في تاريخ مصر وفي مصيرها أدواراً خطيرة ؛ وسوف يلعب كلاهما بلا ريب دوره الخطير في مستقبلها . وقد شمرت مصر دائماً بمركزها البحري الخطير في هذين البحرين ، فكان لها منذ أقدم العصور أساطيل بحرية تجوس

سل بعالم المطبعة الذين لا يعرفون أن في الأمر سرّاً لأنهم من القالات بخطي . فافتتحت الوزارة أني أنا الكاتب ولم تستغرب . ث لأنني كنت من موظفيها ومن رجال التعليم بها . وفي عدى الليالي كنت عائداً إلى البيت — وكان يومئذ في صحراء أمام — فصار كل من يلقي هناك يقول لي : إن الشيخ (يريدون شيخ الامام وهو قريبي) يطلبك فسألت عنه ، فلم أجده ، فذهبت « بيتي ونمت ، وفي الصباح بحث إلى الشيخ خادمه فلحقته به ال : « إركب » فركبت . وكانت له مركبة يجرها جواد أسيل سألته : « إلى أين إن شاء الله ؟ » قال « إلى وزارة المعارف » هشت وسألت : « وماذا أصنع في وزارة المعارف ؟ » قال : « تسلم ملك » فصحت من فرط الدهشة : « عملي ؟ .. ماذا تعني ؟ » قال : جاءني وزير المعارف أمس وأنت تعرف أنه صديقي وقال لي إنه أن المازني قريبي وأنه يعتمد على في اقتناعك بقبول العودة إلى ليفة كوظيفة أقرانك في الوزارة » فأدركت أن الوزير غلط لأنني أنا كاتب القالات التي أقامت القيامة وقلت : « إن المسألة ها غلط .. لست كاتب القالات » قال : « زي بعضه » قلت : هذه رشوة لا أستحقها مع الأسف » قال : « يا أخى لا تكن تونا » قلت : « مجنون .. عاقل .. كيف أستطيع أن أدخل بارة المعارف وأنا أكتب كل يوم بامضائى ضد الوزارة كلها ؟ . ي وجه أثنى الناس ؟ .. كل ذمة لها نحن .. لا تحسب أن أحداً فع من أن يرشى .. ولكن من سوء الحظ أن هذه الرشوة رض في الوقت الذي لا يسمنى فيه أن أفنع ضميرى بقبولها .. ند قلت لك إنى لست الكاتب كما توهمت الوزارة فأرحها وأعفها ن تكلف هذه الرشوة . »

وانتهى الأمر على هذا الوجه . واني ليخيل لي أحياناً أنى كنت مغفلاً ولكن من يدري ؟ .. وسواء أ كنت أم لم أكن أعرفني ندمت قط على شيء مضى وفات . . ولماذا أعنى النفس لاضى ولا خير في ذلك ؟ والحاضر حسبي مشغلة . والحمد لله على وفق وأعان .

إبراهيم عبد القادر المازني

خلال هذه المياه وتذود عن شواطئها ، وأساطيل تجارية تحمل تجارتها إلى أقصى نفور العالم القديم

وكأن مصر تاريخ مجيد في الغزوات والفتوحات البرية التي بلغت أحياناً قاصية الأناضول شمالاً ، وأقصى السودان والحبشة جنوباً ، فكذلك لمصر تاريخ مجيد في الغزوات والفتوحات البحرية ، بل إن تاريخ مصر البحري يبدو أحياناً في ألوان من العظمة تضارع سيرة أعظم أساطيل هذه المياه في العصور الوسطى ؛ فقد كان الأسطول المصري طوال هذه العصور يملك ناصية شرق البحر الأبيض ، ويناهض أسطول الدولة البيزنطية ، وأسطول البنادقة أعظم أساطيل العصر ، وكانت له في تلك المياه جولات وفتوحات عظيمة حتى أواخر القرن الخامس عشر

ومنذ القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي) نرى مصر تعنى بأسطولها عناية فائقة ، وتنشئ دور الصناعة أو المصانع البحرية العظيمة لتندى أسطولها باستمرار بمختلف الوحدات البحرية ؛ وكانت دور الصناعة بمصر والاسكندرية ودمياط أيام الفاطميين تخرج أعظم الوحدات البحرية المعروفة في ذلك العصر . وبلغ الأسطول المصري في أوائل عهد الدولة الفاطمية نحو مئاة قطعة ترابط في الاسكندرية ودمياط وعسقلان وفي البحر الأحمر . وكان للأسطول وشئونه ديوان خاص يرف بديوان الجهاد أو ديوان العائر ؛ واشتبهت مصر أيام الفاطميين مع الدولة البيزنطية في عدة معارك بحرية شهيرة . وفي أيام الدولة الأيوبية لمب الأسطول في المارك الصليبية دوراً خطيراً ؛ وكانت الحراقات أو قاذفات النار المصرية عاملاً حاسماً في هزيمة لويس التاسع ورده عن مصر . ومع أن الأسطول لم يحظ أيام دول السلاطين بمثل العناية التي حظى بها أيام الفاطميين ، فإنه لبث منذ القرن الثالث عشر إلى أواخر القرن الخامس عشر عاملاً هاماً في التوازن الدولي في شرقي البحر الأبيض المتوسط . وفي أوائل القرن الخامس عشر افتتح الأسطول المصري جزيرة قبرص في عهد الملك الأشرف برسباي (سنة ١٤٢٥ م) ، وغزا رودس أكثر من مرة ؛ وكان يشتمل يومئذ على نحو ستين قطعة ، وكانت معظم تجارتها من المتلوعين الذين يهرعون إليه كلما دعا داعي الجهاد . وما زالت مصر أيام السلاطين تحتفظ بأسطولها حتى الفتح العثماني ، بل نرى السلطان الفوري

آخر أولئك السلاطين يحدد الأسطول المصري ويمده لمحاربة البرتغاليين للمحافظة على طريق الهند القديم الذي كانت مصر حارسته وكانت تعلق عليه أهمية تجارية خاصة . وفي سنة ١٥٠٨ م أعني قبيل الفتح العثماني بأعوام قلائل نرى الأسطول المصري بقيادة أمير البحر حسين يهزم الأسطول البرتغالي في البحر الأحمر بقيادة الأميرال لورنسو الميدا ، ثم يشتبك بعد ذلك في معارك بحرية شديدة مع أسطول برتغالي آخر بقيادة أمير البحر الشهير البوكركي على مقربة من باب المندب

والظاهر أن مصر لبثت بعد الفتح العثماني مدى حين تحتفظ بأسطولها ، أو على الأقل بسمعتها البحرية ، فترى التواريخ النصرانية تنوه بشجاعة البحارة السكندريين في موقعة لباتو البحرية الشهيرة التي نشبت بين الأسطول العثماني بقيادة علي باشا ، والأساطيل النصرانية المتحدة بقيادة الدون خوان سنة ١٥٧١ م ، واشتركت فيها إلى جانب الترك وحدة بحرية مصرية ، تنوه التواريخ النصرانية بشجاعتها وبراعتها

بل مالنا نرجع بعيداً ، وقد كان لمصر في أوائل القرن الماضي أسطول ضخم ، وكانت من الدول البحرية التي يحسب حسابها في شرق البحر الأبيض المتوسط ؛ ففي عهد محمد علي استعادت مصر صفها القديمة كدولة بحرية ، وأستأنف الأسطول حياته في هذه المياه بعد أن قطعت زهاء ثلاثة قرون . ومع أن الأسطول المصري لم يبلغ عندئذ قوته القديمة ، فإنه لم يلبث أن غدا عاملاً يحسب حسابه . واهتم محمد علي بإنشاء الأسطول منذ بداية حكمه ، فأنشأ أسطولاً صغيراً في البحر الأحمر ثم قرنه بإنشاء أسطول كبير في البحر الأبيض المتوسط ، وأنشأ بالاسكندرية دار صناعة عظيمة لصنع الوحدات البحرية . ومع أن الأسطول المصري قد نكب في موقعة نافارين الشهيرة في المياه اليونانية سنة ١٨٢٧ ، فإن عبقرية محمد علي أثبت ألا أن تنشئ مصر أسطولاً آخر أعظم وأضخم ، فلم تمض أعوام قلائل حتى كان لمصر أسطول ضخم قوامه ست وثلاثون قطعة من مختلف الوحدات ، بها ألف وثمانمائة مدفع ؛ وبلغ رجاله نحو ثمانية عشر ألف مقاتل ، وذلك في سنة ١٨٤٣ أعني لأقل من قرن مضى . وكانت معظم هذه الوحدات البحرية من صنع دار الصناعة المصرية الشهيرة ، وقليل منها اشترى من الخارج

وتقوم بقسطها من الدفاع عند الطوارئ، والمفاجآت، وتكون نواة لأسطول مصر المستقبل. ذلك أن مصر باعتبارها دولة بحرية من دول البحر الأبيض لا تستطيع أن تغنى عن هذه الحقيقة إلى الأبد، ولا مندوحة لها من أن تسير تطور الحوادث والظروف ولمصر أسوة بدول أخرى من دول البحر الأبيض ليست أكبر منها ولا أعظم موارد، مثل اليونان وتركيا؛ فكلتاها تملك قوة بحرية متواضعة، ولكنها في نفس الوقت تكني لأغراض الدفاع المحلية، وكلتاها تعتبر من الدول البحرية في هذه المياه

إن عصرنا الحاضر عصر التسليحات والأهبات الدفاعية؛ والبحر الأبيض المتوسط ليس مكفول السكينة، بل يخشى أن يكون في المستقبل القريب مسرحاً لمنافسات وخصومات ربما أصاب مصر رشاشها؛ ومن بواعث الأسف أن تكون حقوق الأمم اليوم عرضة للانكار والانتقاص من جانب بعض الأمم التي تعتد بقوتها؛ ففي مثل هذه الفترات المضطربة من الحياة الدولية التي يسود فيها قانون القوة، ترتجف الأمم الضعيفة إشفافاً على مصارها، وتستمد من بعض المحالفات القوية ما تعتمد عليه لدرء الخطر، ولكن ذلك لا يفيها من واجب الأهبة والاستعداد قدر استطاعتها؛ وإذا كانت مصر لظروف خاصة قد تخلصت في هذا المضمار عن غيرها من الأمم، فإن عليها أن تستكمل اليوم ما فاتها بالأمس، لكي تستطيع مسيرة الحوادث والظروف، ولكي تثبت قبل كل شيء أنها تحرص على استقلالها الذي نالته بعد طول كفاح وهذه هي تكاليف الاستقلال الفادحة؛ فإن استقلال الأمم لا تكفله الحقوق الدولية إذا لم تدعمه أهبة الدفاع؛ ومصر اليوم تبدأ في هذا الميدان حياة جديدة، وتعنى بتنظيم دفاعها بحفظها إلى هذا الواجب المقدس تاريخ جيشها المجيد؛ ولكن مصر أيضاً دولة بحرية، وقد كان لها أسطول مجيد كما كان لها جيش مجيد. فلتذكر إذن تاريخ هذا الأسطول الذي بسطنا خلاصته في هذا الفصل؛ وإذا كانت ظروفها الحاضرة لا تفصح لها مجالاً للعمل السريع في هذا الميدان، فإن المستقبل القريب قد يمد لها سبيل التفكير، وقد يمدّها أيضاً بالوسائل والموارد التي تعاونها على تحقيق هذا المشروع الحيوى الجليل.

محمد عبد الله عمار

ك لتدهش حقاً إذا علمت أن الميزانية المصرية لم تزد إيراداتها في الحين على ثلاثة ملايين جنيه، وكانت هذه الملايين الثلاثة ية للاتفاق على الجيش والأسطول، ومختلف المرافق والشاريع ملاحية المدينة التي اضطلع بها مصلح مصر العظيم هذا ولستنا نتحدث هنا عن أسطول مصر التجاري، وكيف ل طوال العصور الوسطى بأخذ بأعظم قسط في الواصالات عرية بين مصر وفتور البحر الأبيض المتوسط، شرقه وغربه الله، وكيف كان إلى جانب أساطيل البنادقة والجنوبيين يأخذ سط وافر في تجارة الهند في تلك العصور

عرضنا هذه الخلاصة التاريخية ليرى القارىء كيف كانت مصر في عصور استقلالها دولة بحرية عظيمة، وكيف كان أسطول مصرى في تلك العصور عاملاً من عوامل التوازن باستقرار في شرق البحر الأبيض المتوسط.

والآن وقد استأنفت مصر حياتها الحرة المستقلة بعد فترة الحزن غلت فيها إراداتها وحرياتها؛ الآن وقد عادت تحمل على هها أعباء الاستقلال وتكاليفه، وتعد أسباب الدفاع عن هذا استقلال، وتعيد تنظيم جيشها الباسل ليتبوأ مكانته التاريخية ديمة بين الجيوش الحديثة، فانه يلوح لنا أن حديث الأسطول سرى مما يناسب المقام والظروف.

وإذا كان من حسن الطالع أن تكون مصر صديقة وحليفة بريطانيا العظمى أعظم الدول البحرية؛ وإذا كانت مصر تستطيع حين أن تعتمد على معاون حليفها العظيمة في رد اعتداء بتدين عليها وخصوصاً من البحر؛ وإذا كانت بريطانيا العظمى من مصلحتها الحيوية أن تعاون بأقصى ما تستطيع في سلامة مصر من كل اعتداء خارجي، فإن ذلك كله لا يمنع مصر من أن سكر في المستقبل وأن تتطلع إلى اليوم الذي تستطيع فيه أن نظم لنفسها نوعاً من الدفاع البحرى إلى جانب الدفاع البرى الدفاع الجوى.

ونقول نوعاً من الدفاع البحرى لأننا لا نطمح أن تغدو مصر دولة بحرية في المستقبل القريب؛ وإنما نطمح في أن يكون لمصر في فرصة الملائمة قوة بحرية دفاعية تؤيد سيادتها في المياه المصرية